العلاقة بين الشرق والغرب
فى رواية شوكة فى الفؤاد

أ.د. سليمان العطار
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب – جامعة القاهرة

رواية شوكة في الفؤاد للكاتبة اليونانية ريا غالاناكي تحمل عنوانا تحت العنوان "حياة الفريق إسماعيل باشا ". و الرواية محاولة جمالية لكتابة سيرة الفريق إسماعيل سليم باشا ، ذلك الغلام اليوناني الذي وقع في الأسر علي يد الأتراك ثم تم حمله إلي مصر، حيث تربي تربية إسلامية و عسكرية علي يد نظام محمد علي الكبير و بعد تخرجه من الكلية الحربية و تحوله إلي ضابط في الجيش المصري ترقي حتي وصل إلي مرتبه وزير الحربية ، وكان هذا الشاب بعد التحاقه بالجيش يصحب إبراهيم باشا في غزواته حتي صارا صديقين إلى د أن إبراهيم باشا صحبه حين مرض إلي اوربا و تجولا معا في البلاد الاوروبية المختلفة حتي تم تتويج إبراهيم باشا خديوي لمصر ليحكم وقتا يسيرا قبل أن يختطفه الموت .

ذلك الغلام الأسير و الذي صار وزيرا لحربية مصر ربما في عهد الخديوي إسماعيل ولد في جزيرة كريت من أسرة يونانية ، تم ذبحها في مذبحة أقامها الأتراك ولم يبق من الأسرة غيره و غير أخ أكبر له أسر أيضا ولكنه تم حمله إلي أسطنبول حيث يسعده الحظ بأن يحرره الروس و يحملوه إلي أثينا ، ثم تحوله الظروف إلي رجل غني يعيش في قصر فاخر ، لكنه يوجه ثروته لمساعدة مقاومة الاحتلال التركي في جزيرة كريت مسقط رأسه

و رأس أخيه الذي سوف تقتله رصاصة دفع ثمنها من ثروته الطائلة ذلك الأخ الاكبر الأثيني ، الذى أيضا جعل من قصره مأوى سريا لرجال المقاومة الكريتيين ،حيث يجرى إعدادهم لترحيلهم إلى الجزيرة لمحاربة الأتراك ، وحليفهم المصرى تحت قيادة أخيه الأصغر... بالطبع وضع مأساوى إنسانيا، لكتها تقنية ممتازة من الروائية لوضع الشرق والغرب فى مواجهة داخل شخص اسماعيل باشا ، ثم وضعهما منفصليْن فى مواجهة تتشابك مع المواجهة الأولى ،عندما يضطر اسماعيل باشا وأخاه للتحارب أولهما ممثلا للشرق فى احترام للواجب الذى يجب الواجب الأسرى والوطنى لأنه يحارب باسم وطن آخر(مصر العثمانية الحليف التابع لعدو اسماعيل باشا وأخيه)، وينتمى لأسرة أخرى هى الأسرة العلوية التى ضمه إليها الود العميق المتبادل بينه وبين إبراهيم باشا .

مؤلفة الرواية كتبت عدة روايات أشهرها هذا العمل الذي ترجم إلي عدة لغات ونال جائزة اليونسكو ٩٨ ..... ولنا أن نسأل لماذا نال هذا العمل تلك الشهرة ولماذا تهتم به اليونان بصفة خاصة حتي أن مدير المركز الثقافي اليوناني بالإسكندرية يطلب من الدكتور محمد حمدي إبراهيم ترجمته، و يطلب و يشارك في ان يصير العمل موضوعا لقراءات و ندوات . إن إجابة التساؤلات التي يطرحها هذا العمل سوف تكون موضوع هذا المقال ، لكننا نبادر لطرح أمرين هما جوهر الإجابة و خلاصة هذه الورقة: الأمر الاول هو أن العلاقة بين الشرق و الغرب كانت طوال الوقت هي روح العمل و استراتيجيته ، و هي علاقة تتحقق بها الذات الأوربية ، أما الامر الثاني فإن الرواية تطرح العلاقات المصرية اليونانية بشكل فريد و مثير ، و كأن العمل في حد ذاته إحياء لهذه العلاقات في عصور إزدهارها .

وقراءة هذه الرواية السيرة حملتني فورا مع الصفحات الأولي إلي الاعتقاد في عدة عناصر أساسية ينبني عليها هذا العمل . العنصر الأول هو

أن الكاتبة قد أستيقظ في داخلها الروح الإغريقية، و أعني الروح الخالقة للاسطورة . من ثم ، لم أندهش عندما قسمت الكاتبة العمل إلي إجزاء الجزء الاول أطلقت عليه "سنوات مصر/ الأسطورة " ، و الجزء الثاني " أيام الأوبة للوطن و حكاياتها التاريخيية " أما الجزء الثالث فقد أطلقت عليه " ختام الأسطورة "، والعنصر الثاني هو رغبة الكاتبة الواعية بأن تسجل أحداثا تاريخية بعينها تسجيلا يستخدم أدوات المؤرخين وأساليبهم، لتواجَه بمشكلة تغلبت عليها ببراعة الشعراء العرب الأقدمين عندما كانوا ينتقلون من موضوع إلي موضوع آخر في قصائدهم ، مع ربط الموضوعين لخلق وحدة العمل الشعرى ، و قد سمي ذلك " حسن التخلص " ، و انا هنا اقصد انتقال الكاتبة من السرد الجمالي إلي السرد التاريخي مستخدمة تقنية حسن التخلص تلك ، بأن صنعت تداخلا هيوليا بين أزواج من المتناقضات ، و أهم زوج من تلك الازواج الثنائية" الشرق و الغرب" و هو يقابل" الاسطورة و التاريخ". و من الأزواج مصر /اليونان و العثمانيون /مصر و العثمانيون / اليونانيون ، أما منطقة التداخل الهيولية فهي شخصيات تتعايش معا في أنفصال متصل أو في أتصال منفصل فلدينا أسماعيل باشا المصري المسلم و الطفل الأسير اليوناني دينان مختلفان و لغتان بعيدتان بل و رجولة عسكرية في مقابل طفولة مُنتهكة ، أيضا الخلط بين الموت و الحياة وعالم الشهود و عالم الغيب(فى الحقيقة الرواية كلها نموذج لذلك ولكن نكتفى بمثال شبه مدرسى وهو الفصل الرابع من الجزء الأول، بجانب الجزء الثانى كله والذى يحمل عنوان الأوبة إلى الوطن وحكاياتها التاريخية) . و أما العنصر الثالث فنحن أمام عمل إبداعي تم التخطيط له بوعي استراتيجي لتقدم لنا الكاتبة عملا يصعب تحديد نوعه و هو سيرة و هو أسطورة و هو رواية و هو أيضا تاريخ وواقعية سحرية فى وقت واحد.

هذا التداخل يعلنه إسماعيل باشا في أحد خطاباته إلي شقيقه الأثيني قائلا : .....أنه سمع اساتذته في المدرسة و هم يتحدثون عن مناهج المنطق الأرسطي و عن الخطط العسكرية التي تفتق عنها ذهن تلميذه الإسكندر الأكبر . ثم حكى لأخيه : أن هذا الملك الوسيم مازال يلهم رواة القصص و الحكايات ، سواء وهم واقفين عند النافورات العامة أو و هم يجوبون الصحاري مثل البدو برحلات في جنح الليل ، كما ذكر له أنه سمع (أو خيل إليه أنه قد سمع) – خلف الضجة البالغة التي كانت تصدر عن طابور العرض – كلمات يونانية كانت أمهما تنطق بها ، وخيل إليه كذلك أن وجه هذه الأم الكبير كان معلقا في الفضاء ، و أنه كان يتوسل أحيانا من أجل سلامة المقدونيين ، أو كان يستدر العطف – خلال الحروب التي نشبت في سوريا – من أجل سلامة ابنها وفلذة كبدها بغض النظر عن كونه مسيحيا أو مسلما .....و ينهي خطابه إلي أخيه بقوله : " قبلاتي إليك .. و أرجو أن تقبل نيابة عني مرة أخري و الدة الظلال "

في هذا النص بطل السيرة أمام حيرته بسبب الظهور المستمر لأمه الميتة يطلق عليها والدة الظلال ، و هكذا تملأ الظلال أو الأطياف واقع حياة أسماعيل باشا ، لكننا إن تركنا هذه التداخل بين عالم الأموات و عالم الأحياء فإنه لا يفوتنا توسله من أجل سلامة المقدونيين (وليس المصريين) : فمن هم ؟ هل هي عائلة الأسكندر الأكبر ؟ لا أنها عائلة محمد علي المقدوني الأصل و العربي المصري المسلم الآن ، و كأنما تحاول الكاتبة التي أمتدحت محمد علي إلي حد التأليه و ابراهيم باشا إلي حد الأسطورة أن تجعل منهما أسرة بطلمية أخري تحكم مصر و تحب مصر ، وتعاني من التسلط التركي مثلما تعاني كريت مسقط راس إسماعيل باشا . إن هذه النقطة قد عذبت أسماعيل باشا كثيرا فلكي يكون مصريا لابد أن يخفي هويته اليونانية ، و كذلك، نتوقع أن يفعل محمد علي و ولده إبراهيم ولكن بصورة مخففة فهما قد أتيا

إلي مصر بإرادتهما لكن كان عليهما أن يدفنا في أعماق الخاطر إنتماءهما المقدوني أو قل اليوناني .

وهكذا ليس غريبا ان يتحول إبراهيم باشا بعد موته إلي طيف يصاحب إسماعيل باشا فى حملته على موطن رأسه ثم إلي عالم الموت تماما مثل أم إسماعيل باشا فالخلط بين الشخصيتين الميتتين يتم ببراعة شديدة ، لكن الطريف و الأسطوري في نفس الوقت هو ما يحدث لإبراهيم باشا في الموت ، فهو يشيخ ويضعف و يبدأ في الهزيان مثلما حدث لأبيه محمد علي الكبير. العلاقة بين إسماعيل باشا و إبراهيم باشا علاقة فريدة حيث تتحول إمارة إبراهيم و سلطته علي إسماعيل باشا إلي سمو يماثل تماما سلطة الأم وسموها، و لهذا عندما تقترب ساعة إسماعيل باشا يدور حوار بينه و بين إبراهيم باشا، لكنه يظن أنه تلك المرأة العجوز المسنة التي أستدعاها من مكان ما من الجزيرة للحوار معها باللغة اليونيانية ، ذلك الحوار الوهمي الذي يتحول إلي حقيقة عند عمر باشا عندما ينقل إليه أحد جواسيسه أن إسماعيل باشا استدعي أمرأة عجوزا ، ودار بينه و بينها حوار باللغة اليونانية ، فيأمر عمر باشا جاسوسه باغتيال الفريق إسماعيل باشا . وهذا أمر يستحق التأمل لأن هناك روايات متعددة لمصرع إسماعيل باشا و أيضا روايات متعددة لمصرع أم أسماعيل باشا . الشخوص في الرواية يموتون و لا نعرف كيف ، سوي أحتمالات لا يمكن ترجيح أي منها .

و سوف يسيطر الغموض علي العلاقات التي تعي بالمناطق السرية عند الآخر لكنها لاتحب أن تراها أو تسمعها فإسماعيل باشا يعرف جيدا أن إبراهيم باشا يدرك ما يعانيه من عذاب صحبة الطفل الأسير(الذي هو هو نفسه) له دون توقف، وهو يتكلم اليونانية و لا يعرف العربية لكنه لم يسمح له ابدا أن يشاركه هذا السر، أيضا يحدثنا أسماعيل باشا عن شقيقه الأثيني "و لن يقدر كذلك لأنطونيس أن يعرف شيئا عن مسيرة حياته (العكسية) أي من

فترة الرجولة حتي مرحلة الصبا أو من المرحلة الأخيرة حتي الموت . ..... " . أيضا لن يعلم أنطونيس أنه أرسل رصاصة اصابت ساق أخيه إسماعيل الذي رأى أمامه- و الرصاصة تدمي ساقه - طفلا صغيرا (هو إسماعيل باشا نفسه عندما كان صغيرا) أراد أن يمسك به فعجز لأن الجرح الذي أصاب ساقه بفضل رصاصة أخيه لم يتح له أن يواصل العدو خلف الصبي الذي أختفي عن الأنظار كي يجوب - فيما يبدو - أنحاء الجبال التي أتخذها مأوىً له و ملاذا ،و أن هذا الشقيق أنطونيس لم يعرف أبدا أن رصاصته لم تجرح ساق أسماعيل باشا فحسب و لكنها جرحت سوق اشجار زيتون و شوهت و إلي الأبد الطبيعة فى الجزيرة التي اعتز بجمالها أسماعيل باشا مدي حياته خارج الوطن ثم بعد عودته للوطن .

الغلام الذي يمثل الانفصام في شخصية أسماعيل باشا يظهر ليعذبه باختفائه كلما اقترب منه فهو يقول : و في ذات يوم - كانت السحب فيه كثيفة ممطرة حواشيها ، وكان الضباب يلف بدخانه سريع الحركة أشجار السنديان و التين - شاهدت علي حين غرة الغلام الذي كان يعيش ذات يوم في الجزيرة و لاحظت أنه كان يتفرس في محياي حينما غدونا و جها لوجه ..... الغلام كان يقف تحت الأغصان العارية على أمل أن لا تطوله الأمطار ، و أنه كان يحملق في وجهي من خلال كل شجرة من الأشجار و ما أن اقتربت منه حتي لفه الضباب بدخانه و طوي معه الشجرة ....." إنه هنا يتحدث عن رؤيته للغلام و هو في مصر لكنه يقفز فجاة ليطارد هذا الغلام بعد عشرات السنين في جزيرة كريت عندما ذهب إليها علي رأس الجيش المصري(من الأمور اللافتة فى الرواية ملحمية الزمان والمكان لتداخل الأزمنة والأمكنة بشكل يتناسب مع موضوع العمل ذى الحدود الجغرافية والتاريخية) .

ذلك الغلام – الذي قتل العدو التركي أبويه– ليس في مقدوره ان يحدث شقيقه عن العذاب الذي انتابه فيما يتعلق بنهايته(مثلما يحدث فى كل الأساطير تلعب النبوءة دورا هاما فى الرواية ، حيث يتنبأ إسماعيل باشا بنهايته بناء على عدد من الشواهد) .....ولن يحدِّث شقيقه عن تعاطفه مع العدو الذي قتل أبويه و هو تعاطف محرم عليه أن يبوح به ، و هو تعاطف لا مهرب منه، ربما لخطأ صدر عنه من غير قصد ..... من ثمّ كان في وسع شقيقه أن يتخذه عدوا له ، لان إسماعيل باشا بالفعل يحارب في جانب أعداء الجيش الذي يموله شقيقه ....إنها ماساة حقيقية لتضيف المؤلفة وجها جديدا إلي هذا العمل و هو الوجه التراجيدي ، فالبطل التراجيدي– لخطأ غير مقصود، قد يكون ميلاده نفسه– يقع في سلسلة من الأخطاء التي تودي به بشكل مأساوي . إن أوديب الذي ارتكب المحرم يعود في شكل إسماعيل باشا حينما يحارب أهله و يكرر المذبحة التي مات فيها أبواه دون أن يستطيع أن يوقف نفسه عن ذلك .

إن هذا الصراع الذي لا محيص عنه كما تقول الرواية هو الصراع بين الشرق والغرب ، و الذي أخذ شكلا روائيا في تاريخ أسرة محمد علي ، فإبراهيم باشا و أبوه المقدونيان بمساعدة سليمان باشا الفرنساوي وإسماعيل باشا اليوناني يحققان أنتصارات هائلة بتخطيط غربي لكنها انتصارات لمصر و مصر هي الشرق الذي لا يحق له أن ينتصر علي الغرب حتي لو كان هذا الانتصار غير مباشر ، من هنا أجتمعت أوربا لتدمير الأسطول المصري و تحديد سلطة الأسرة العلوية و أيضا لوضع نهاية لحياة أسماعيل باشا الشرقي لصالح الطفل الغربي الذي يصاحبه و يعيش فيه ، فلقد مات اسماعيل باشا برصاصة أرسلها أخوه(الغربى)أو بالسم الذي دسه في قهوته عمر باشا(الشرقى) ...

ليس مهما كيف مات لأنه الشرق و الغرب مجتمعان (و كيبلنج قال انهما لا يجتمعان، و يبدو أن الكاتبة تأخذ برأيه) ، والموت وحده يفصلهما وينهى عذاب إسماعيل باشا ، إذ يحملون جثمانه إلى مصر وتقام له جنازة لانظير لها ، كما تقام له مقبرة رمزية فى كريت تكريما له على يد الأتراك تصير سكنا لروحه التى رفضت الرحيل عن وطنه الأول ، وقررت البقاء فى الجزيرة ، وكما بنى له الأتراك مقبرة ، يقوم أهل الجزيرة بعد استقلالهم بهدمها لبناء مدرسة ، تحل روح الباشا فى جسم أحد تلاميذها لتبدأ من جديد دورة حياة الباشا بشكل طبيعى (غربى)، وهكذا تكاد الكاتبة أن تعلن أن الشرق مادة بدون روح ، والغرب روح خالصة . ولنقرأ معا هذه السطور الأخيرة من الرواية : "...ولقد ظل هذا المدفن الخاوى الذى أقيم هناك للفريق إسماعيل باشاقائما لسنوات طويلة، توازى تقريبا السنوات التى قدر للباشا إسماعيل أن يعيش فيها بمصر وبجزيرة كريت معا. ولكن فى الثلاثينات من القرن التالى أدى إنشاء مدرسة ابتدائية فى هذا الموقع إلى تدمير الأضرحة والمدافن ،التى كان الأتراك خلفوها مؤخرا فى هذه الجبانة ....وكان وجود هذه المدافن .. لايتفق مع الصورة الأوربية الحديثة، التى كانت المدينة تطمح فى اتخاذها..بسرعة تستحق الإعجاب والإشادة . وكان هناك أشخاص يجاهرون بأنهم من أنصار تدعيم الذكريات الشفهية المتواترة عن إخفاء الباشا إسماعيل لديانته المسيحية. وكان هؤلاء الأشخاص يعارضون هدم الأضرحة والمدافن، ويحرضون الناس بالتالى على اتباع الروايات الأخرى المتواترة التى تتعلق بالنسخة المدونة تاريخيا .....وكانت روح الفريق إسماعيل باشا قد حلّت فىجسد غلام من تلاميذ هذه المدرسة .....وهكذا طفق الغلام يقص على (تلاميذ المدرسة) أنه فى ذلك المساء دخل الفريق إسماعيل باشا إلى مسكنه ، وتحدث مع ذويه عن تلك الصلوات القديمة التى كانت تستحوذ على روحه ..... "

إن إسماعيل باشا خلال جولته الأوربية مع إبراهيم باشا عاش الصراع، ربما بين جسده المصرى وبين روحه الأوربية التى أيقظتها داخله الجولة ، وبين الحرب التى يخوضها الآن وبين الحرب التى عاناها طفلا ، تتكرر المشاهد ، ويشعر بعدالة قضية أهله الذين يحاربهم الآن ، نفس الحرب التى أودت بأسرته وبه ... أى هول! عليه أن يقاوم هذا التفكير حتى لايصاب بالجنون ، ربما باسترجاع تصوراته الأوربية، أو بانتزاعها من رأسه . وهكذا فى مونولوج داخلى ينطق – حسب رايى بأهم عبارة فى الرواية متعلقة بهدف هذه الدراسة "وأيا كان الأمرفقد كانت الحرب الوحيدة التى علىّ أن أخوض غمارها هى أن أقاتل ضد مثل هذه الأفكار. وبعد أن غمرتنى الدهشة .....ذلك المواطن الأوربى المتحررالذى كان يرفض أن يتقبل الأفكار الشرقية المعادة والمكررة عن المكتوب أو النصيب . ذلك المواطن الذى يسعى كى يخطط لحياته مسارها الرحب العريض ، لأنه يعلم حق العلم أن مثل هذا التصرف أكثر صعوبة على نفسه من مجرد تقبل الأمر الإلهى فى استسلام وخضوع ، ...ترى هل استولى علىّ الرعب الشديد لأنه ليس هناك فردوس ..... (ومع ذلك) ..واستولت على الحيرة (عندما عجزت عن معرفة) الطريقة التى كانت الروح الأوربية قد هيمنت بها على ذاتى ...."

وهكذا تتحقق الذات الأوربية عبر الآخر المستسلم للقدر والغيب : الطريق الأسهل فى الحياة ، أما الأوربى الذى يخطط لحياته ويرفض الاستسلام للقدر (سادت أوربا موجة جارفة من الإلحاد فى القرن التاسع عشر توظفها المؤلفة بمهارة لإثبات التفوق الأوربى على الغيبية والغيبة الشرقية التى حولت كل انتصارات محمد على وابنه إبراهيم عبثا وجهدا ضائعا ، والشرق دائما هو شرق المتوسط العثمانى والعربى). إن إسماعيل باشا يشعر بالفزع لهيمنة الروح الأوربيه عليه ... إنه هكذا يصير عدوا لنفسه ،ولحياته

المصرية ..هل كانت لاشيء ؟ إن الكاتبة تحاول عبثا أن تصلح الموقف القاسى تجاه الشرق ، حيث يستمر مونولوج الباشا : " كنت فى أعماقى غير راغب فى ذلك (الميل للثوار من أهل كريت وروحهم الأوربية)، فقيل أن أغدو قاب قوسين أو أدنى من الموت، كنت أقيم وزنا للحياة وأحسب حسابها. فلقد كانت حياتى المصرية ذات قيمة ، ولو كان ذلك بحسبانها نوعا من الاستمرار لاغير .....فلو أن واحدة من الحياتين اللتين حظيت بهما قد رضيت بقبول الحياة الثانية ...لما قدر علىّ أن أقاسى على هذا النحو .....".

إذن فالصراع الدرامى فى هذا العمل يوازى الصراع بين الشرق المتوسطى والغرب الأوربى ، وهو صراع با لغ التعقيد دراميا ، كما هو بالغ التعقيد على أرض الواقع ، والغلبة فيه لجماليات عمل فنى ممتاز ، يعكس فى عمق رؤية يونانية للعلاقات (شرق متوسطى / غرب أوربى) عبر خصوصية مصر النصف الأول من القرن التاسع عشر تقريبا ، وشخصيات تاريخية ارتبط مصيرها بمصر واليونان : أسرة محمد على المقدونية (محمد على ولد فى القرية التى ولد فيها الإسكندر الأكبر ، ولعل ذلك سر تسميته لنفسه محمد على الكبير)، واسماعيل باشا ابن جزيرة كريت اليونانية (المصرية التبعية آنذاك) ، وبصرف النظر عن رؤية الروائية لطبيعة الصراع بين الشرق والغرب الذى يشوبه بعض التحيز للفكر الأوربى تجاه الشرق الذى كشف عنه هنتش بإبداع فى كتابه المترجم إلى العربية بمعرفة د. مى عبد الكريم محمود، نشرة دار الندى بسوريا تحت العنوان " الشرق الخيالى ورؤية الآخر /صورة الشرق فى المخيال الغربى / الرؤية السياسية الغربية لشرق المتوسط " فإنها قد أعطت صورة رائعة بل عاشقة لمصر ، كما جعلت من القاهرة أثينا أخرى ، ومن نيلها حزاما للهضبة التى تشكل جزيرة كريت ، ومن ممارسة الشعائر الإسلامية سبيلا للخلاص تماما مثل كل ممارسة مخلصة فى أى دين ، كل هذا رغم استحالة التقاء الشرق والغرب

دون معاناة قد لاتحتمل ، إنهما طريقان مختلفان تحكم العلاقة بينهما موازين القوة فحسب ، ولكنهما كما تكرر المؤلفة فى روايتها يمكن لهما لوقبل كل منهما الآخر أن يَتعايشا فى سلام ، الأمر الذى لم تتوفر الظروف الموضوعية لحدوثه خلال زمن الرواية التى قدمت التاريخ بأمانة لكن بتقنيات جمالية شديدة التفرد، ولا يتسع المقام للخوض فيها الآن .